

مدينة «نيسابور»

الطبقة السابعة من تاريخ نيسابور- وهم شيوخ الحاكم- وطبعها في مجلد مستقل. ومدينة نيسابور من أجل المدن وأعظمها، قال عنها البشاري (ت نحو ٣٨٠هـ): «بلدٌ جليل، ومصرٌ نبيل، لا أعرفُ له في الإسلام من عدلٍ، لما قد اجتمع فيه من الخلال، واتفقت فيه من الخصال، مثل سعة الرزق، ووسع البقعة، وصحة الماء، وقوة الهواء، وكثرة العلماء، بلدُ الأجلة والراسخين من الأئمة...» (٦).

وقال عنها السمعاني (ت ٥٦٢هـ): «وهي أحسن مدينة وأجمعها للخيرات بخراسان، والمنتسب إليها جماعة لا يحصون» (٧).

وقال ابن حوقل (ت بعد ٥٨٠هـ): «وليس بخراسان مدينة أصحَّ هواءً، وأفسح فضاءً، وأشدَّ عمارةً، وأدوم تجارةً، وأكثر سابلةً، وأعظم قافلةً من نيسابور» (٨).

وقال عنها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): «وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، معدن الفضلاء، ومنبع العلماء، لم أرَ فيما طوّفتُ من البلاد مدينة كانت مثلها» (٩).

وقال الحافظ عبد القادر الرازي: «أمهات مدائن خراسان أربع: نيسابور، ومرو، وبلخ، وهراة» (١٠).

وقيل أيضًا: «إنَّ العلمَ شجرة، جذورها في مكة والمدينة، ونُقلُ ورقها إلى العراق، وثمرها إلى خراسان».

وهي مدينة قديمة جدًا، بناها سابور الأول بن أردشير بابكان، وجدَّ بناءها سابور الثاني الساساني في المئة الرابعة للميلاد، وإليه تنسب المدينة، حيث إن «نيسابور» معرَّب من الفارسية «نيسابور»، وهو مشتق من «نيوشاه پور»، ومعناه: (شيء، أو عمل، أو موضع سابور الطيب) (١١).

وكانت تُعرف أيضًا- في صدر العهد الإسلامي- بـ«أبرشهر»، وبهذه التسمية ظهرت في الدراهم القديمة التي ضربها فيها الخلفاء الأمويون والعباسيون، وفيها يقول أبو تمام حبيب بن أوس الطائي:

أَيَا سَهْرِي بَلِيلَةَ أَبْرَشَهْرٍ
ذَمَمْتُ إِلَيَّ نَوْمًا فِي سَوَاهَا

مدينة نيسابور مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، معدن الفضلاء، ومنبع العلماء، وكانت قبل تدمير التتار لها من المراكز العلمية المهمة، لاسيما في علم الحديث، وصفها الإمام الذهبي بأنها «دار السنة والحوالي» (١)، وتخرَّج منها أئمة لا يحصون من الفقهاء والمحدثين والعلماء، وقد أفرَدَ الإمامُ الحاكمُ النيسابوري (ت ٤٥٥هـ) لترجمة علمائها كتابه العظيم «تاريخ نيسابور»، وقد ذكرَ في مقدمته للكتاب سبب تأليفه له فقال: «أعلم بأنَّ خراسان وما وراء النهر لكل بلدة تاريخ صنَّفه عالمٌ منها، ووجدتُ نيسابور مع كثرة العلماء بها والحفاظ لم يصنَّفوا فيه شيئاً، فدعاني ذلك إلى أن صنَّفتُ تاريخَ النيسابوريين» (٢).

وهذا الكتاب من أجل كتب التواريخ وأعودها فائدة، قال السمعاني: «وقد جمعَ الحاكمُ تاريخَ علمائها في ثمانية مجلدات ضخمة» (٣)، وقال السبكي: «كانت نيسابور من أجل البلاد وأعظمها، ولم يكن بعد بغداد مثلها، وقد عمل لها الحافظ أبو عبد الله الحاكم تاريخاً تخضعُ له جهابذة الحفاظ، وهو عندي سيدُ التواريخ» (٤).

واختصره عددٌ من الأئمة، منهم الحافظ أبو بكر محمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤هـ)، وسماه «مقتضب تاريخ نيسابور» (٥)، ومنهم الإمام الذهبي، كما ذكرَ في مقدمته لتاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء. و«تاريخ نيسابور» للحاكم من أهم كتب التاريخ والرجال التي لا تزال مفقودة إلى الآن، ولم يوجد منه إلا ترجمة فارسية مختصرة، لمحمد بن حسين بن أحمد المعروف بالخليفة النيسابوري (كان حيا في سنة ٧١٧هـ)، وقد جمعَ الباحث مازن البيروتية

إن من أحب الأشياء إلى النفس أن تتعرف على منطقة أو مدينة كانت حاضرة المناطق، ثم غيبتها الأيام، ونسيها سكان الزمان. مدن كانت نسباً لعلمائها الذين ملأوا الدنيا علماً، فعرفتهم أقاصي المعمورة، وطوف ذكرهم البلاد، على حين زالت هذه المدن مع تقلب الأيام، واندرست، وطمست معالمها، أو استبدل باسمها آخر.

وإن من أحب الأشياء إلى النفوس أن تعرف عالماً طار صيته، ثم تعلم موقع بلده، لتقرن العلم بالمكان، والسمع بالبحس، والمعرفة بالبيئة، والنبوغ بالمصدر، وتكون خيبة أملها شديدة عندما تبحث فلا تصل، وتفتش فلا تعرف، إذ ضاع الماضي، واندرث الفن، وندبت الحضارة أيامها الخوالي.

وتكون ثورة النفس عنيفة على أمثها وعلمائها الذين لم يضعوا تحت يديها ما يعرفها على ذلك المكان، الذي اقترن بترجمة عالم من العلماء، يذكر كلما ذكر ذلك العالم، ومع ذلك لا يعرف موقعه في خريطة العالم اليوم.

ومن الموضوعات التي يعاني الباحثون من شح المعلومات حولها ما يتعلق بالتحريف بالبلدان التي ينتسب إليها العلماء، حيث إنها وإن كانت معرفة في كتب البلدان القديمة، كمعجم البلدان للحموي، وغيره، إلا أن تحديد موقعها اليوم، وتقديم وصفها الحالي، مما يعجز عن الوصول إليه كثير من الباحثين، وأنا واحد من أولئك، حيث كنت أجد صعوبة في الوصول إلى بغيتي في هذا المجال في بحوثي الأكاديمية في الجامعة.

ولاشك أنه قد اهتم علماء المسلمين بعلم البلدان، وأولوه عناية خاصة، وذلك لأسباب كثيرة منها التعرف على الأمصار والأقطار التي ينتسب إليها علماء كان لهم إسهام بارز في التراث الإسلامي، وكان اهتمام المحدثين منهم بهذا العلم أكثر من غيرهم؛ لأن معرفة موطن المحدث من أهم عناصر ترجمته، ولذلك أفرده كنوع مستقل من أنواع علوم الحديث (١).

وقد زادت الحاجة إلى هذا العلم بعد أن طرأ تغيير واسع على بعض الأسماء المعروفة من نواح عديدة، وبعد أن أهمل الباحثون ذكر كثير من المناطق والأقاليم التي كانت من حواضر العلم، وذلك بعد أن تقاسمتها دول عدة، وضمت إلى أراض واسعة، فضاعت لصغرها النسبي، كما هو حال «خراسان».

وللمساهمة في تذليل هذه العقبات؛ أردت أن أتناول الأمصار التي انتسب إليها العلماء.

د. محمد محمد جميل النورستاني

باحث دراسات إسلامية في وزارة الأوقاف الكويتية



أهل الحديث»، كما أنه ممن حازوا على لقب «أمير المؤمنين في الحديث».

ومن أشهر شيوخه: الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، والإمام البخاري، وأبو بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، وزهير بن حرب (ت ٢٣٤هـ)، ومحمد بن المثنى (ت ٢٥٢هـ)، وقشيرة بن سعيد البغلاني (ت ٢٤٠هـ)، ومحمد بن عبدالله بن نمير (ت ٢٣٤هـ)، وغيرهم.

تتلمذ على الإمام مسلم كثيرون، ولا غرابة في ذلك، فهو أحد أئمة هذا الشأن، من أشهرهم الأئمة: أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)، وابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)، صاحب كتاب «الجرح والتعديل»، وابن خزيمة (ت ٣١١هـ)، والترمذي (ت ٢٧٢هـ)، وأبو عوانة الإسفرائيني (ت ٣١٦هـ)، صاحب «المستخرج».

وقد ألف الإمام مسلم كتباً عديدة، طبع بعضها ولم يُعثر على بعضها، وأجل كتبه على الإطلاق كتابه «الجامع الصحيح»، وهو أحد الكتب الستة المعروفة، وثاني الصحيحين، وأصح كتاب في الحديث بعد صحيح الإمام البخاري.

توفي الإمام مسلم عشية يوم الأحد، الخامس والعشرين من رجب، سنة ٢٦١هـ.

الهوامش

- (١) الأمصار ذوات الآثار، للإمام الذهبي (ص ٢٠٥).
- (٢) نقلاً عن كتاب: تاريخ الحديث لمن المشرق والشام، للشيخ مازن البيروني (ص ٢٠١).
- (٣) الأنساب (٥/ ٥٥٠).
- (٤) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ١٧٣).
- (٥) المصدر السابق (١/ ٢٩٥).
- (٦) أحسن التقاسيم، للبشاري (ص ٣١٤).
- (٧) الأنساب (٥/ ٥٥٠).
- (٨) صورة الأرض، لابن حوقل (ص ٤٣٣).
- (٩) معجم البلدان، له (٥/ ٣٨٢).
- (١٠) وهذه المدن الأربعة تقع -الآن- في ثلاث دول، اثنان منها -وهي: بلخ، وهراة- في أفغانستان، ونيسابور في إيران، ومرو في تركمانستان.
- (١١) بلدان الخلافة الشرقية، لـ «كي لسترنج» (ص ٤٢٤).
- (١٢) أحسن التقاسيم، للبشاري (ص ٣١٤).
- (١٣) صورة الأرض (ص ٤٣٤).
- (١٤) الأمصار ذوات الآثار (ص ٢٠٥).
- (١٥) صورة الأرض (ص ٤٣١).
- (١٦) تاريخ الإسلام (٦/ ٤٢٢).
- (١٨) تاريخ بغداد (١٣/ ١٠١).

«شاذياخ»، وعمَّرها وسَوَّرها واستعادت بذلك عمرانها.

يقول ابن حوقل: «وسمعت في سنة ثمانين وخمسائة أن العمارة قد اتصلت إلى الموضع القديم» (١٥).

ثم بقيت على ذلك إلى سنة ٦١٨هـ، وفيها خربها المغول وألحقوها بالأرض، ثم أعيد بناؤها، ومازالت إلى الآن.

وهي تقع الآن في إيران، على بعد ٥٠ ميلاً غربي مدينة «مشهد»، في أقصى الشمال الشرقي من إيران، على الطريق الرئيسية التي تصل طهران بمشهد، وهي قاعدة القسم الإيراني من خراسان اليوم، وعدد سكانها اليوم يناهز المائة ألف نسمة، وتُسمَّى الآن «نِيسَابُور».

ويُنسَب إلى مدينة «نيسابور» خلق كثير من أئمة المسلمين في فنون شتى، على رأسهم الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ، القشيري، النيسابوري، وهو أحد أركان علم الحديث، وأحد أئمة البارزين فيه، وممن رفع الله ذكره في العالمين.

وقد أثنى على الإمام مسلم كثير من الأئمة، من شيوخه وأقرانه ومن بعدهم من تلاميذه وغيرهم، وقال له شيخه إسحاق بن منصور الكوسج: «لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين» (١٦).

بل قال أحمد بن سلمة بن الفضل: «رأيت أبا زرة وأبا حاتم يُقدِّمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما» (١٧).

وهو -رحمه الله- ممن لُقِّبَ بأنه «إمام

وسمَّاه المقدسي وغيره باسم «إيرانشهر»، أي: مدينة إیراء، وذكر البشاري أن هذا الاسم (إيرانشهر) كان لقصبة مدينة نيسابور (١٢).

فُتحت أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على يد ابن خالته الأمير عبدالله بن عامر بن كَرِيز سنة ٢٩هـ، وقيل: ٣١هـ صلحا، وبني بها جامعاً.

وقيل: فُتحت في أيام عمر بن الخطاب، على يد الأنصف بن قيس، وإنما انتقضت في أيام عثمان، فأرسل إليها عبدالله بن عامر ففتحها ثانية.

وقد اتسعت نيسابور بعد نقل الطاهرية دار إمارة خراسان من مدينتي «مرو» و«بلخ» إليها، يقول ابن حوقل: «وكانت دار الإمارة في قديم الأيام بمرو وبلخ إلى أيام الطاهرية، فإنهم نقلوها إلى نيسابور، فعمَّرت وكبرت وعُزِّرت، وعظمت أموالها عند توطنهم إياها وقطونهم بها، حتى انتابها الكتاب والأدباء بمقامهم بها، وطراً إليها العلماء والفقهاء عند إيثارهم لها، وقد خربت نيسابور من العلماء كثرة، ونشأ بها على مر الأيام من الفقهاء من شهر اسمه وسمق قدره وعلا ذكره» (١٣).

واستمرت نيسابور في ازدهارها إلى سنة ٥٤٨هـ، وفيها سُوِّيت بالأرض، حيث أحرَقها «الغُر» لما أسروا الملك «سنجر»، قال الإمام الذهبي: «دار السنة والعوالي... ومازال يُرحل إليها، إلى أن دخلها التتار، ثم مضت كأن لم تكن» (١٤).

ثم استولى عليها أحد مماليك سنجر فنقل الناس إلى محلة منها يُقال لها